إنمـــا يزدهر الأدب

فى عصور الفوضى الاجتماعية

للدكتور زكى مبـــارك

[بقية ما نشر فى العدد الماضى]

أيها السادة :

يقال فى كل يوم : إن جوّ مصر معروف بالاعتدال ، فما الذى جنينا فى ذلك الاعتدال ؟ كانت النتيجة أن نخاف من الاضطراب فى بقاع الأرض. وكانت النتيجة أن نشعر بالغربة حين ننتقل من حُلوان إلى قَليوب . وكانت النتيجة أن تخمُد العواطف بفضل ما نحن عليه من قرار وسكون

أعترف بأن مصر استفادت من اعتدال الجو فائدة عقلية ، هى التفوق العظيم فى التأليف ، فمصر أقدر الأمم الإسلامية والعربية على التفكير المنظم الدقيق بفضل هذا الجو المعتدل الجميل

ولكن مصر فى ماضيها تخلفت فى ميدان الأدب عن الشام وفارس والعراق ، لأن الفوضى الجوية ، لا يحسها المصريون كما يحسها الشاميون والفرس والعراقيون ؛ وإلا فأين وصف الثلوج والأمطار والأعاصير فى أشعار من يعيشون فى ضيافة النيل ؟ ثم شاءت المقادير أن تتفوق فى الأدب بعد تخلُّف ، فما مصدر ذلك التفوق ؟ لم نعرف قسوة الطبيعة كما يعرفها الناس فى الشام وفارس والعراق ، وإنما رمتنا المقادير بقسوة أعنف من قسوة الطبيعة ، هى الثورة الجائحة التى نحس أعاصيرها الفواتك فى الأذهان والعقول والقلوب

نحن كلّ يوم على شفا الهاوية : إن اصطرع للشرق جزعنا ، وإن اضطرم للغرب نظرنا . ألم تسمعوا أنه كان معروفاً عندنا أن الميدان الأول فى الحرب الحاضرة سيكون حول ضفاف النيل ؟

ومن هذه المحرجات التى تتجدد كل يوم ، إن لم أقل فى كل ساعة أو كل لحظة ، من هذه المحرجات خُلقت لنا مكاره سياسية تفوق المكاره الجوية فى الشام وفارس والعراق

وما هى نقطة الارتحال من وضع إلى وضع فى الأدب الحديث ؟

لن أرجع إلى ما فصلته فى مؤلفاتى ومقالاتى ، ويكفى أن أنص على أن الأدب فى مصر لم يرتق إلا بفضل الفوضى السياسية ، وهى صورة من الفوضى الاجتماعية

النهضة الحقيقية للأدب الحديث ترجع إلى عهد مشئوم ، هو النزاع بين الرجلين العظيمين : عدلى يكن وسعد زغلول . ففى ذلك العهد صارت الكتابة والخطابة عنصرين أساسيين فى تكوين الأدب المصرى الحديث . وبفضل النزاع بين عدلى وسعد خُلقت جرائد ومجلات وأندية صار لها فى نهضة الأدب مكان ملحوظ . وبفضله استطعنا أن نذيع فى الشرق فنّا جديداً ، هو الأدب السياسى ، وهو فنّ كان انقراض بانقراض النضال بين أشياع بنى أمية وأتباع بنى العباس . وإليكم هذه النكتة :

كان شاع أنى أخاصم الأستاذ الدكتور طه حسين ، فكتبت فى الهجوم عليه مقالات كان لها وقع حسن أو سىء عند قراء اللغة العربية ، واطلع الأستاذ محمود بسيونى على بعض تلك المقالات فانزعج أشد الانزعاج وسعى للصلح بينى وبين الدكتور طه فى حفل مشهود حضره العمداء وكبار الأساتذة بكليات الجامعة المصرية ، فهل تعرفون نتيجة ذلك الصلح المشئوم أو الميمون ؟

تلفّت الناس متوجعين لضياع فرصة ثمينة هى فرصة الجدل حول المذاهب الأدبية ، فهل فيكم من يتفضل بالسعاية بينى وبين الدكتور طه حسين لأرجع إلى مصاولته من جديد ؟

كان بينى وبين الدكتور طه ودّ وثيق ، ولكن رعاية ذلك الود لم تنفع الأدب بشىء ، لأن كل ما يصدر عنه كان يقع من نفسى موقع القبول ، فلما ثار علىّ وغضبت عليه أتيت فى مصاولته بالأعاجيب ، فمن ذا الذى يتفضل فيفسد ما بينى وبينه لأجد الوقود لسنان قلمى ؟ أليس فيكم دساس ظريف ينقل إليه أننى اغتبته من فوق منبر كلية الآداب ؟

اتقوا الله وأفسدوا بينى وبينه وبين سائر الأساتذة لتسمعوا صرير القلم الذى تعرفون ! وهل فيكم من ينكر أن مجموعة نهج البلاغة من أعظم الذخائر الأدبية ؟ فهل كان يمكن أن يظفر الأدب بتلك المجموعة النفيسة لو اعتدل الميزان فصار علىّ ابن أبى طالب أول خليفة أو ثانى خليفة بعد الرسول ؟

إن غيظ ابن أبى طالب على أهله وزمانه هو الذى أرّث

فى صدره نيران الحقد على الدنيا والناس فزفر بتلك الخطب الروائع التى غالبت الدهر وصابرت الزمان

وما هى الظروف التى خلقت مواهب الشيخ محمد عبده ؟

هى ظروف الفوضى الاجتماعية فى انتقال الأزهر من حال إلى أحوال ، يوم كان تدريس العلوم الحديثة موضع خلاف ، ويوم كان القول بكروية الأرض يلقى ألف اعتراض

والشيخ المراغى من أكابر هذا الزمن ، ولكنه سيذهب بعد عمر طويل بلا تاريخ طويل ، لأن بيئة الأزهر قد صلحت واستقامت فلم تعد تحتاج إلى مصلح يتشرف بعدوان الاضطهاد

فإن أراد الأزهريون أن يكون لشيخهم تاريخ طويل فليتكلفوا الغفلة عن مطالب العصر الحديث ليجد شيخهم فرصة الدعوة إلى اعتناق مذاهب التفكير فى الجيل الجديد

أرجوكم للمرة الثانية أو الثالثة أن تذكروا أنى لست من أنصار الفوضى الاجتماعية ، وإنما أنا مؤرخ لظاهرة من الظواهر الأدبية والفلسفية ، والمؤرخ غير مسئول عن حوادث التاريخ

وكم تمنيت السلامة من مكاره الفوضى التى تثور فى صدرى والتى قضت بأن يكون ميدان قتال بين الملائكة والشياطين

فى صدرى أتون يأخذ وقوده من الأحلام والأوهام والحقائق والأباطيل ، ثم يقول فى كل لحظة : هل من مزيد ؟

وهذا الأتون يفرض علىّ أحياناً أن ألقم ثم الشره الأكول بأكداس من الآراء تشبه الحطب المعطوب ليسكت عنى لحظة أو لحظتين ، كما يقدم الأعرابى لناره الموقدة أكداساً من العظام والتراب ! ويشهد الله أنى أكره أشد الكره بعض ما يصدر عن قلمى ، ولكن ماذا أصنع وفى صدرى نار تأكل الحجر والطوب حين يعييها أن تجد الوقود الصالح من جذوع الشجر والنخيل ؟ ولكنى أتعزى كلما ذكرت الحكمة التى تقول : «لو أنصف الناس استراح القاضى» . فشيوع المظالم بين الناس هو الذى خلق الثروة التشريعية ، وهو الذى قضى أن يكون فى الدنيا قضاة ومفتون ومحامون. ولو سلم المجتمع من الاضطراب لأغلقت المحاكم ، ولم يبق أمام الأستاذ لطفى جمعة إلا الفرار إلى الريف ليأخذ قوته مما تخرج الأرض بجهاد الفأس والمحراث ، ويومئذ يُحرَم الأدب من خطبة نفيسة يحاورنى بها فى المدرج الأكبر بكلية الآداب ، ويحرمون تكلف الرفق فى التصفيق له بغير حق !

لو أنصف الناس واستراح القاضى لخلت الدنيا من المؤلفات النفيسة التى صدرت عن الرومان والعرب والفرنسيين فى أصول التشريع . لو أنصف الناس واستراح القاضى لخلت الدنيا من الأدب الرائع الذى صدر عن رجال الأخلاق من الذين سمعتم أخبارهم ودرستم آثارهم مع منصور فهمى ومصطفى عبدالرازق وأحمد أمين. لو أنصف الناس لمات سقراط غير مسموم ، ولم نقرأ الوثيقة الأدبية الرائعة التى جاد بها قلم أفلاطون ، والتى فتنت لامرتين حين قرأها بترجمة كوزان فنظمها بقصيد رائع يفتت الجلاميد .

لو أنصف الناس لحرمنا نفثات ابن مسكويه فى أدب الصديق . لو أنصف الناس لضاع على الأدب حظٌّ نفيس هو أشعار أبى العلاء فى نقد أخلاق الحكام والقضاة والفقهاء . لو أنصف الناس لأمن هابيل شر قابيل فلم يصنع التمثال الرائع الذى نراه فى متحف (البتى باليه) فى باريس. لو أنصف الناس لحرم الأدب قصائد ابن الرومى فى تشريح ثائرة الحقد والبغضاء . لو أنصفت الطبيعة لحرمت الإنسانية من عبقرية باستور فى حرب الجراثيم . لو أنصف المجتمع لأمن بعض الرجال شر الاغتراب وهو فرصة ليقظة العقول . ولو أنصفتْ ليلى — عفا الحب عن ليلى — لحرمتم نفثات المجنون القديم والمجنون الجديد

أنا أكره الفوضى لأنها كدرت حياتى ، ولأنها جعلت صدرى ميداناً لاصطراع الهدى والضلال ، ومع ذلك أجد العزاء ، حين أشاء

فبفضل الفوضى فى تقسيم الحظوظ نشأت مذاهب أدبية وفلسفية واقتصادية صنعت ما صنعت فى توجيه الأذهان والعقول بالشرق والغرب . وبفضل الفوضى فى توزيع الممالك كانت الحروب التى صاغت عزائم الأبطال . وبفضل الفوضى فى تكوين مدرس اللغة العربية قام النزاع بين الأزهر ودار العلوم والجامعة المصرية ، وهو نزاع محمود العواقب ، وسيؤتى ثماره بعد حين . وبفضل الفوضى فى تصور الغاية السياسية للأمم العربية والإسلامية خُلِقت عبقريات الكواكبى وجمال الدين ومحمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول . وبفضل الفوضى فى فهم الغاية الأدبية كان الصراع بين أنصار القديم وأنصار الجديد . وبفضل الفوضى فى أحوال الجو كان التنويع الطريف بين الربيع والصيف والخريف والشتاء . وبفضل الفوضى فى الأخلاق والعقائد كان الجمال المرموق فى تزيين

الوجود بالحرب بين الفجور والعفاف والكفر والإيمان . وبفضل الفوضى فى تحديد الآراء كانت المناظرات التى تنظمها المعاهد والأندية والجمعيات . وبفضل الفوضى فى فهم الغاية الصحيحة لمصاير الإنسانية كان النزاع بين الديانات ، وكان الصراع بين المذاهب المختلفة فى الدين الواحد ، وتلك فتنٌ جوامح نشأت عنها آداب وفنون لا ينكرها إلا غافل أو جهول

لما تلطفت وزارة المعارف العراقية فدعتنى لتدريس الأدب العربى بدار المعلمين العالية فى بغداد ، سألت عن مبلغ بغداد من الحضارة فقيل لى إنها تشبه طنطا ، فجزعت أشد الجزع ، لأن طنطا يقلّ فيها الصراع بين المذاهب والآراء ، وإن كانت عامرة بالقصور والمتنزهات ، وهى البلد الوحيد الذى لا أبيت فيه حين أمضى إليه لمهمة رسمية

ودخلت بغداد فرأيتها أقل من طنطا فى الحضارة والعمران ، ولو شئت لقلت إن أصغر شارع فى طنطا أجمل من أكبر شارع فى بغداد ... وكذلك أحسست قسوة الوحشة حين دخلت عاصمة العراق ، ولولا الخوف من غضب « العقيدة الأدبية » لرجعت فى السيارة التى أقلتنى إلى هناك

وبعد يومين اثنين رأيت أن بغداد البدوية غير طنطا الحضرية

فى طنطا شوارع عريضة وقصور شوامخ ، ولكن سكانها لا يعرفون الصراع الجميل بين المذاهب والآراء ، لأنها مدينة مصرية صميمة يقل فيها الأجانب ، ويكثر فيها ائتلاف الأذواق ، وهو باب من السكون والخمود

أما بغداد الجافية التى لا تعرف الحضارة فى غير شارع واحد فهى مضطرب عريض لاختلاف المذاهب والمشارب والأذواق ، فيها عصبيات عربية وفارسية وهندية وكرديه ويهودية ، وفيها جاليات فرنسية وانجليزية وأمريكية ، وفيها على جفوتها بقايا من الحضارات المختلفات ، وفيها ألف مجال ومجال لاصطرام الأذواق والأحاسيس

وكذلك ألقيت نفسى فى ضرام بغداد فكتبت فى نحو تسعة أشهر ألوفاً من الصفحات نشرتُ منها ما نشرت وطويت ما طويت

فى طنطا الحضرية يعيش شعبٌ واحد ، وفى بغداد البدوية تعيش شعوب ، ومن الاختلاف والائتلاف يحيا الأدب الرفيع

ليس فى بغداد كلها قصر يشبه أصغر قصر من قصور حاضرة « الغربية » ولكن بغداد فيها جرائد ومجلات وأندية لا تعرفها حاضرة « الغربية » لأن الهدوء فى طنطا عجز عما قدر عليه القلق فى بغداد . وكذلك فهمت أن الأدب يزدهر فى عصور الفوضى الاجتماعية وفى أقطار الفوضى الاجتماعية ، بدليل ازدهاره فى القاهرة وبغداد وباريس ولندن وبرلين ، على شرط أن تقع الفوضى فى قوم أحياء ، لا يُقلقهم الاضطراب ، وإنما يزيدهم قوةً إلى قوة ومضاء إلى مضاء . وما رأيكم فى الشواطئ المصرية ؟ ألم تسمعوا أن رجال الدين اتفقت كلمتهم على أنها من الأرجاس ؟ ألم تروا حيرة شيخ الأزهر فى تخليص سمعة مصر من مآثم تلك الشواطئ ؟

لا جدال فى أن شواطئنا فى الصيف تمثل الفوضى الاجتماعية أعنف تمثيل ، فهى مضطرَبٌ طويل عريض تثور حوله الآراء فى الإسكندرية وبور سعيد ودمياط ، ويمتدّ شرُّه حتى يصل إلى بحيرة التمساح ، ثم تنتقل عدواه إلى حمامات مصر الجديدة والمعادى وحلوان

ينظر الرجل المؤمن إلى هذه الشواطىء نظرة مخطوفة ، ثم يهتف : اللهم أن هذا منكرٌ لا يرضيك ! وأقول وأنا صادق إنى أنظر إلى شواطئنا أحيانا بعين الغضب والمقت ؛ ولكن هذه الشواطىء المُجرمة خلقت فنّا جديداً فى اللغة العربية هو « أدب الشواطىء » ، وقد ألفتُ فيه كتاباً سأنشره يوم أطمئن إلى أن الجمهور يفهم أن المؤرخ غير مسئول عن حوادث التاريخ .

ويوم يُنشر هذا الكتاب ستعرفون أن مصر دانت الأدب العربى بثروة طريفة من تشريح العواطف والأهواء ، وسترون التراث حين تعرفون أن تلك الشواطىء أنطقت رجال الدين أنفسهم بأقوال هى من عيون الأدب الرفيع

كان الأستاذ الأكبر قد اتفق مع سعادة حامد باشا الشوارنى على تخصيص جزء من شاطىء الأسكندرية للنساء بلغة العصر القديم ، أو السيدات بلغة العصر الحديث ، وتسامع رجال الأزهر بذلك فأمطروا شيخهم الكبير وابلاً من برقيات الثناء

ثم ماذا ؟ ثم أُعِدّ الشاطئ النسوى إعداداً محتشماً وأزيلت منه القهوات المخضرَمة التى تجمع من الأشربة ما نعرف وما نجهل

ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

ثم شاع أنه حمام خاصٌّ بالعجائز فلم تقبل عليه ستٌّ ولا ستّونة ولا بنتٌ ولا بنّونة ، ورفعت أسواره بعد يومين اثنين !

لا تظنونى خلقتُ هذه النكتة ، فما هى إلاّ واقعةٌ وقعت ،

ولها حواش وذيول ستعلمون أنباءها بعد حين

حياة الشواطئ إفك وسفاهة وضلال ، ولكن الأدب يستفيد من كل شيء ، لأن مهمة الأدب هي الوصف والشرح والتعليل ، وحياة الشواطئ تمدّه بوقود رائع جزيل

الشواطئ كلها مآثم ، ولولا الخوف من بني الحاسدين والحاقدين لقلت إن المآثم لا تخلو من ربيق يزلزل القلوب والأذواق والعقول ، ومن هذه الزلزلة تكون الرجفة التي تثير شياطين الشعر والخيال . والشواطئ المصرية لها سوابق في تاريخ الأدب العربي . وقد وقعت تلك السوابق فوق أرض مقدسة تعطر ثراها بأقدام الرسول. هل تعرفون ما أعني ومن أعني؟ عندكم عمر بن أبي ربيعة وعندكم الشريف الرضي ، وهما شاعران جعلا مواسم الحج معالم صبابة ومدارج فتون

عمر بن أبي ربيعة فاجر بحسب الاصطلاح، وهيامه بزائرات مكة هيام أثيم ، ولكن أشعار ذلك الفاجر صارت من ذخائر الأدب العربي . وقد شرّقت وغرّبت حتى قهرت بعض الجامعات الأوربية على إفراد أشعاره بدرس خاص

كان يقال : ما عُصِيَ الله بشعر أكثر مما عُصِي بشعر عمر بن أبي ربيعة

وهذا حق ؟ فهل تضمنون أن يرفع اسمه من مطبوعات وزارة المعارف ؟ وكيف وهو من الذين ستحفظ أقدارهم في كتاب « أعلام الإسلام » بدراسة يقدمها الأستاذ عباس العقاد ؟

وتسمعون في كل يوم أن مصر تحارب الخمر لأنها في طليعة الأمم الإسلامية ، ولكن رجال الأدب في مصر لن يستطيعوا غض النظر عن « خمريات أبي نواس » لأن الأدب وإن تجبّر في بعض نواحيه له سلطان قهار لا ينكر جبروته غير الأغبياء !

أنا أبغض الفوضى أشد البغض ، وأرجو الله في كل وقت أن يحفظ عليّ نعمة السلامة من مكايد الشياطين ، ولكني أؤرخ الأدب ، والمؤرخ لا يصدُق إلا إن تناسى منافعه الذاتية ، ونظر في الحوادث بلا غرض ، والنزاهة عن الغرض هي التي تقفني هذا الموقف الشائك فأسجل على نفسي القول بأن الأدب لا يزدهر إلا في عصور الفوضى الاجتماعية ، وهو قول يعرّضني لقوارص الاشتياب والتجريح

ولكن ماذا أصنع وأنتم دعوتموني لمواجهة المنطق والعقل فوق منبر كلية الآداب بين شباب وكهول لا يلقاهم الرجل الحازم بغير الصراحة والصدق ؟

أحب أن أعرف كيف يطيش السهم الذي صوبته إلى صدر الباطل بهذه الكلمات التي شقيت في تحريرها ليلتين طويلتين ؟ أحب أن أعرف كيف يضيع الرجل الصادق في هذه البلاد؟ أحب أن أعرف كيف ينال خصمي أصواتكم بعد هذه البينات ، وعلى ضوء هذه الكهرباء ؟ له أن يصول ويجول كيف شاء ، ولكم أن تحكموا له أو عليه كيف شئتم ، فما أملك من القدرة غير صرير القلم وهدير الوجدان . ولكن ، ما الذي يستطيع أن يقول ؟

أيقول : إن النظام أفضل من الاضطراب ، وإن الأدب الذي يصدُر عن الحالة الأولى أفضل من الأدب الذي يصدر عن الحالة الثانية ؟

آمنت وصدّقت ! ولكن هل يستطيع القول بأن النظام صدر عنه أدب رفيع ؟ وما حاجة الناس إلى الأدب حين يعيشون في نظام وأمان ؟ وهل للآمنين أدب وهم يعيشون في غيبوبة بفضل الراحة والاطمئنان ؟

الأدب حظُّنا ، جماعة المكتوين بالدنيا والناس ، وليس لسوانا غير الأحلام ، أحلام النائمين بهدآت الليل !

عنّا يصدُر قلق الفكر وانزعاج البال ، وهما مصدر يقظة الرأي والعقل. فما بال قوم يتوهمون أنهم قادرون على مساورة الشعر والخيال وهم يشاركون الأموات في الهدوء والاطمئنان؟ عنا يصدر الإحساس بالدنيا والوجود ، لأننا أشقياء بالدنيا والوجود ، فما بال قوم يتوهمون القدرة على اقتحام جحيم الأدب وهم بفضل نعيم النظام سعداء ؟ عنا يصدر الأدب الصحيح ، لأننا أصحّاء ، وهل يحس وخز الألم غير من يملك عناصر المعافية ؟

من أنتم ، في عالم الفكر والعقل ، أيها الوادعون في ظل الأمن المكفول برعاية القوانين ؟ أنتم أشبه بالأطفال الذين يعيشون في ظلال ما ورثوا عن الآباء والأجداد ، ولن تحسوا من الدنيا أكثر مما يحس هؤلاء ، أما نحن فقد كتب علينا أن نعيش بحس مرهف وذوق مشبوب ، بفضل البلاء بالدنيا والناس ، والفرق بيننا وبينكم أبعد مما تظنون ، فجرّبوا الاطمئنان إلى الوهم الخادع إن صح للمريض بالهيام أن ينخدع بالسراب !

النظام قرار ، والاضطراب حركة ، والحركة أدلّ على الحياة من السكون ، جعلني الله وإياكم من الأحياء !

زكي مبارك